

تمهيد

نزل القرآن على الرسول العربي محمد صلى الله عليه وسلم واضحاً مبيناً، واتخذ منهجه مناداة الفطرة، وبذلك كان قريباً إلى عقول الناس الذين نزل فيهم وقلوبهم، غير أن الآثار الأدبية يتناولها الناس فهماً كل بحسب درجته العقلية . فإذا ما كان الأثر الأدبي كتاباً إلهياً في درجة عالية من البلاغة لا يرتقى إليها خصيب المعنى عميقه فإنه لاشك يفسح مدى متفاوتاً بين الناس في قدر تفهمهم له، وهذا لا يطعن بحال في القرآن ما دام الناس متفاوتين في الرقي العقلي تبعاً للفطرة والاكتساب ، بل إن الشخص الواحد تتباين مراتب تفكيره في أطوار حياته . وإذن كان القرآن بحاجة إلى من يرجع إليه فيه فيوضح ما أجمل من معانيه ويقرب ما بعد عن الفهم منها . ومن ثمّ فطبيعي أن يكون أمين الله على وحيه مفسراً لكتابه، يقول تعالى : (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون)^(١) .

كان الرسول المفسر الأول يبين معنى المجمل من القرآن . هذا رجل يسأل الرسول يقول : أرأيت قول الله : (كما أنزلنا على المقتسمين) فيقول الرسول : اليهود والنصارى . فيقول الرجل : (الذين جعلوا القرآن عضين) ما عضين ؟ فيقول الرسول : « آمنوا ببعض وكفروا ببعض »^(٢) ، ويقرب المعنى فأبو بكر يقول للرسول : يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية : (ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجْزَى به . . .) فكل سوء عملنا جزينا به ؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : غفر الله لك يا أبا بكر ! ألسنت تمرض ؟ ألسنت

(١) سورة البقرة آية ١٥١ .

(٢) الإتيان للسيوطي ج ٢ ص ١٩٨ م ٢٢ . مطبعة حجازي سنة ١٣٦٨ هـ . سورة الحجر آيتا ٩٠ ، ٩١ .

تنصب ؟ ألسنت تحزن ؟ ألسنت تصيبك اللأواء ؟ ... فهو ما تجزون به^(١) .
 وكان الرسول كذلك يوضح معنى اللفظ الغريب في القرآن^(٢) . عن أبي هريرة
 قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . السائحون هم الصائمون^(٣) . وعن
 عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم : (أقم الصلاة لدلوك الشمس ...)
 قال : لزوال الشمس^(٤) . ولم يكن الناس بحاجة إلى أن يبين لهم الرسول
 مناسبات التزول . فالأحداث التي تنزل فيها الآي تجرى بين أعينهم وتتأقلمها
 أسماع العرب وأفواههم في أنحاء الجزيرة العربية ، ولاهم بحاجة إلى أن يقفوا طويلاً
 أمام متشابه القرآن يحكمون منطقهم لأن عقولهم على فطرتها لم تألف تعمقاً
 أو بلحاجاً في تفكير فلسفي .

ولما شاء الله أن يتم الرسول رسالة ربه وانتقل إلى الرفيق الأعلى نهض من
 بعده تلاميذه من الصحابة ؛ أولئك الذين شغلهم أمور الإسلام حين انبثاق نوره ؛
 فشهدوا الوقائع ، وصحبوا الرسول بتأثره في قوله وعمله . فلما مات تفرق بعض في
 الأمصار وولى بعض أمور الخلافة . وشغل الجميع بتطبيق أحكام الإسلام تطبيقاً
 عملياً مسترشدين بنصوص القرآن أو السنة والرأى أو الشورى حين لا نص ؛ فلم
 يكن لديهم المتسع من الوقت ليفسروا القرآن غير هذا التفسير العملي . وما أثر
 عنهم من التفسير قليل اللهم إلا على بن أبي طالب الذي نسبت إليه الشيعة
 كثيراً مما ليس له .

(١) مسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ١٨٢ . طبعة المعارف سنة ١٣٦٨ هـ (سورة النساء آية ١٢٣) .

(٢) منشأ الغرابة فيما عدوه من الغريب أن يكون ذلك من لغات متفرقة . أو تكون الألفاظ
 مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مخرج الغريب كالظلم والكفر والإيمان ونحوها مما نقل عن
 مدلوله في لغة العرب إلى المعاني الإسلامية المحدثه أو يكون سياق الألفاظ قد دل بالقرينة على معنى
 معين غير الذي يفهم من ذات اللفظ كقوله تعالى : (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) أي فإذا بيناه فاعمل به
 (إعجاز القرآن للرافعي ص ٨٥ الطبعة الثالثة - مطبعة المقتطف والمقطع بمصر سنة ١٣٤٦ هـ -
 ١٩٢٨ م) .

(٣) الإتيقان للسيوطي ج ٢ ص ١٩٦ من ١٢ (سورة التوبة آية ١١٢) .

(٤) الإتيقان للسيوطي ج ٢ ص ١٩٨ من ٣٣ (سورة الإسراء آية ٧٨) .

ولكن فتى طموحاً - هو ابن عباس - بهره أول ما تفتحت عيناه على الحياة ؛ نور الإسلام وأحداثه ... قرآن وحديث ؛ معارك بين الشرك والتوحيد ؛ قلة مع الرسول تنتصر وكثرة مع الشرك تنهزم . وأيقع الفتى فإذا الإسلام يبسط ذراعيه على الجزيرة العربية وإذا دولة إسلامية قوية تنهض من ضعف وفوضى ليتهاوى على قدميها تاجاً سيدتى العالم : فارس والروم ؛ ثم إذا نفوس تصفو كدرتها جفاوة الجاهلية ، وإذا جيوش المسلمين تندفع مشرقة ومغربة تبث نور الإسلام حيث تحل . ثم لا ننسى صلة الرحم التى تربط الفتى ابن عباس ببطل هذه الأحداث، ولا أن ميدان هذه الأحداث العظام هو موطن هذا الفتى ومراحه . توفى الرسول ولما يتخطى هذا الفتى السابعة عشرة من عمره^(١) . فأكب يدرس نور هذه الثورة : القرآن ؛ يدرسه من كل نواحيه . وكان بحق أول باحث يمثل حاجة الجيل الذى تلا جيل الرسول ؛ يمثل حاجته إلى الوسائل والأسباب التى يستعينون بها على فهم القرآن وملابساته وقد تباعد شيئاً عصر الثورة عنهم .

اتجه ابن عباس حين ألت بالمسلمين فادحة وفاة الرسول إلى ميدان البطولة الإسلامية ؛ إلى المدينة يجمع الحديث ، والحديث آتئذ هو الشجرة التى تنفرع عنها أفنان المعرفة الإسلامية . يقول ابن عباس : إنه وجد عامة علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الأنصار^(٢) ، فبالحديث استطاع ابن عباس أن يعرف سبب النزول أو فيمن نزلت الآى ، وهذه المعرفة مما يحللى معانى الآى ويلقى الضوء عليها . ولهذا نجد اسمه يدور كثيراً فى أقدم مرجع بين أيدينا يبين سبب النزول وهو سيرة ابن إسحاق^(٣) . وإذن كان السبب الأول من أسباب التفسير عند ابن عباس

(١) يقول ابن حجر فى الإصابة ج ٢ ص ٨٠٢ طبعة كلكتة سنة ١٨٨٨ م : (ولد ابن عباس قبل الهجرة بثلاث وقيل بخمس والأول أثبت وهو يقارب ما فى الصحيحين) وفى الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر ج ١ ص ٣٨٤ طبعة حيدر آباد سنة ١٣١٨ هـ (وفى أصح الروايات أن الرسول توفى وهو ابن ثلاث عشرة سنة) .

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ج ١ ص ٩٦ إدارة الطباعة المنيرية .

(٣) سيرة ابن هشام طبعة السقا سنة ١٩٣٦ م ج ١ ص ٣٢٠ و ٣٢١ و ج ١

هو معرفة المناسبات والملابسات التي نزل فيها القرآن . سبب آخر لجأ إليه ابن عباس - وسبق به اللغويين - في التفسير ذلك هو الشعر يستعينه على معرفة عادات العرب وعلى معرفة معنى اللفظ القرآني ويتهدى بذلك كله في التفسير الذي يصوغه في قالب أدبي معجب^(١) ؛ كذلك كان يلجأ ابن عباس إلى أهل الكتاب يستمد منهم التفسير القصصي للقرآن^(٢) ، غير أن موقفه من الكتبيين كان موقف الناقد المعتز بدينه الذي ينخل ما ينقل إليه^(٣) .

ولكن كان ابن عباس حين يفسر بأدواته الثقافية هذه إنما يفسر بها في دائرة المأثور المروى . كان ابن عباس إذا سئل فإن كان في القرآن أخبر به فإن لم يكن وكان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر به فإن لم يكن وكان عن أبي بكر وعمر أخبر به فإن لم يكن قال برأيه^(٤) وكان يخشى الرأي يقول : إنما هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فمن قال بعد ذلك شيئاً فما أدري أفى حسناته يجده أم في سيئاته^(٥) .

وانقضى عصر الصحابة والتابعين وابتدأت تتميز في تاريخ التفسير مناهج في تناول المعنى القرآني منها المنهج اللغوي والمنهج النقلي والمنهج التأويلي سواء كان عقلياً كلامياً أو صوفياً وجدانياً ثم التفسير القصصي . فأما المنهج اللغوي فقام إثر استحالة اللسان العربي أعجمياً في حركة الفتح الإسلامي . يقول ابن الأثير : « لما فتحت الأمصار وخالط العرب غير جنسهم امتزجت الألسن ونشأ بينهم الأولاد فتعلموا من اللسان العربي ما لا بد لهم في الخطاب وتركوا

(١) راجع مسائل نافع بن الأزرق في الإتقان للسيوطي ج ١ ص ١٢١ - ١٣٤ .
وغيره يصور إعجاب الناس بابن عباس المفسر نجده في تفسير الطبري ج ١ ص ٢٩ .

(٢) مثال هذا أسئلته لأبي الجلد في تفسير الطبري ج ١ ص ١١٧ و ص ١١٨ .
و ج ١٣ ص ٨٢ وأخبار عن أبي الجلد هذا في طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٦١ قسم أول .
طبعة أوروبا .

(٣) يقول ابن عباس : إن ذبيح إبراهيم المفقى هو إسماعيل وزعمت اليهود أنه إسحق وكذبت اليهود (العرائس) للعلبي ص ٩٥ .

(٤) الإصابة لابن حجر ج ٢ ص ٨١٠ .

(٥) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ج ٢ ص ٢٦ .

ما عداه. وتمادت الأيام إلى أن انقرض عصر الصحابة وجاء التابعون فسلكوا سبيلهم، فما انقضى زمانهم إلا واللسان العربي قد استحال أعجمياً^(١). وقد قام اللغويون حفاظاً على لغة القرآن يضربون أكباد الإبل إلى البادية يستفسرون عن لفظ أو يقفون على تعبير ودعاهم ذلك إلى حفظ الأشعار ففيها أحياناً ما يفسر لفظاً قرآنياً أو يساعد على فهم تعبير قرآني فأكثروا من رواية اللغة والأشعار لذلك دققوا فيها وتحروا الموضوع من الصحيح . . . وعنوا بلهجات العرب لتفهم قراءات القرآن كما عنوا بالمعرب والأصيل لما في القرآن من معرب وأصيل^(٢). ولما كانت مرحلة تدوين العلوم رأيانهم يؤلفون كتب المعاني في تفسير غريب القرآن وتوجيه قراءاته ومن أقدم ما ألف فيما نعلم - كتاب معاني القرآن للرؤاسي^(٣) وقد كان الرؤاسي أستاذاً للكسائي والفراء^(٤)؛ وقد أورد صاحب الفهرست من قام من اللغويين بتأليف كتب في موضوع (معاني القرآن)^(٥).

وقام المنهج التأويلي في القرآن الثاني الذي نشأت فيه الفرق الدينية الإسلامية وأخذت تنظر إلى القرآن من خلال فكرياتها وكان لها نشاطها الملحوظ في ميدان التفسير وبخاصة المعتزلة، وسنعرض بعد لظروف نشأتها وضروب نشاطها الفكري. وقد اتخذت المعتزلة أداة المعرفة العقل الذي يجمع ولا يخضع لعاطفة. وفي هذا القرن أيضاً أخذ التصوف ينشأ ويتعرع في ظروف عدة، منها: الحروب الأهلية الطويلة الدامية التي وقعت في عهد الصحابة وبنى أمية؛ والتطرف العنيف في الأحزاب السياسية؛ وازدياد التراخي والاستهانة في المسائل الخلقية؛ وما عاناه المسلمون من عسف الحكام والمستبدين الذين يملون لإرادتهم وآراءهم

(١) النهاية لابن الأثير ج ١ ص ٣ ، ٤ المطبعة الثمانية بمصر سنة ١٣١١ هـ .

(٢) ضحى الإسلام ج ١ ص ٣٢٨ و ٣٢٩ ط سنة ١٣٥٧ و ج ٢ ص ٢٥٥ - ٢٥٧ .

سنة ١٣٥٧ هـ .

(٣) معجم الأدباء ج ١٨ ص ١٢٥ ط ١٣٥٧ هـ .

(٤) معجم الأدباء ج ١٨ ص ١٢٢ والكسائي توفي سنة ١٨٢ أو سنة ١٨٣ أو سنة ١٦٢

على خلاف . (معجم الأدباء ج ١٣ ص ٢٠٢) أما الفراء فوفاته سنة ٢٠٧ هـ .

(٥) الفهرست لابن النديم ص ٥١ و ٥٢ . المطبعة الرحمانية بمصر .

الدينية على غيرهم من أخلصوا في إسلامهم؛ ورفض هؤلاء الحكام علانية كل فكرة تتصل بالخلافة الدينية التي حاول المسلمون إرجاعها^(١)؛ ثم موجات الشك والتعصب العقلي التي طغت على المسلمين في العصر العباسي الأول والتطاحن المرت بين أصحاب المقالات والفرق والجمود على مذهب أهل السنة من جانب العلماء^(٢)—تحت تلك العوامل كلها وجد الصوفية واتخذوا الإدراك الذوقي الذي لا أثر للعقل فيه آلة المعرفة ، ومن أقدم تلك التفسيرات الصوفية التي تمثل منزعمهم في التفسير تفسير أبي محمد سهل بن عبد الله التستري (المتوفى سنة ٢٨٣ هـ) الذي نراه في تفسيره يفيض من فهمه الروحي وكشفه الوجداني معاني على تفسير القرآن .

ووجد في تاريخ التفسير التفسير القصصي، ودعا إليه أن منحى القصص في القرآن منحى نفساني لا يمس إلا جانب العظة والدرس والعبرة ، لذلك يتناول من القصة الواحدة جزئياتها التي تلائم جوالدرس والتذكير ، والنفوس بطبعها طلعة لا تكتفي باللمحة ؛ إنما تريد أن تشيع بالتفصيل ، وتفصيل القصص القرآني في التوراة أو الإنجيل، فاتجه المفسرون القصصيون إليهما . وتسربت الروايات والقصص المستمدة من الأخبار اليهودية والنصرانية إلى التفسير القصصي الإسلامي إما عن طريق من أسلم من أهل الكتاب مثل تميم الداري وكان نصرانياً فأسلم^(٣) ومثل كعب الأخبار وكان يهودياً فأسلم . أو عن طريق اطلاع بعض المسلمين على كتب أهل الكتاب فعبد الله بن عمرو بن العاص كان يقرأ الكتابين التوراة والفرقان^(٤) وأبو نعيم يسوق في حليته عظة استقاها عكرمة من التوراة بدؤها « يا سماء أنصتي ويا أرض استمعي . . . » والنص من العهد

(١) في التصوف الإسلامي لنيكولسون تعريب أبو العلاء غفني ص ٤٦ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م .

(٢) في التصوف الإسلامي لنيكولسون تعريب أبو العلاء غفني ص ٧٢ .

(٣) الإصابة لابن حجر ج ١ ص ٣٧٢ .

(٤) حلبة الأولياء لأبي نعيم ج ١ ص ٢٨٦ ط سنة ١٣٥١ هـ مطبعة السعادة .

القديم سفر أشعياء الإصحاح الأول^(١). وأخذ التفسير القصصى يتضخم مع أن القصص القديم قصص ينذر تيقن صحته ؛ وتضخم لأن مصدره عوام غير ثقات كما يقول ابن خلدون^(٢)، فأرادوا أن ينفق سوقهم وهم مصدر تلك الأخبار لذلك ابتكروا وتخللوا وزاد الرواة عليهم، وتتابع العصور حتى صرنا أمام ركام هائل من التفسير القصصى جمعه في واد واحد الثعلبي (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ) في كتابه (العرائس) .

والتفسير منذ أول أمره إلى العصر العباسي قد اتخذ شكل الحديث بل كان جزءاً منه وباباً من أبوابه وقد كان الحديث هو المادة الواسعة التي تشمل جميع المعارف الدينية ؛ فهو يشمل التفسير ويشمل التشريع ويشمل التاريخ، وكانت كلها ممتزجة بعضها ببعض تمام الامتزاج^(٣) وقد قام الطبرى متأثراً في ذلك علماء القرن الثالث يفرد التفسير من الحديث كما أفرد مالك أحاديث الأحكام في الموطأ ومحمد بن إسحاق أحاديث السيرة في كتابه عن السيرة النبوية . ثم اتخذ الطبرى منهجاً في التفسير القرآني وفي اختيار التفسير النقلي المفرد من الحديث وكان للموقف الذي واجهه الطبرى في عصره أثره في تحديد هذا المنهج ؛ كانت هناك مذاهب كلامية تتصارع مستنصرة بالحديث والقرآن^(٤) ؛ وأحزاب سياسية تتناحر مستعينة بالقرآن والحديث ؛ وفقهاء يختلفون في فروع الفقه الإسلامي بين أهل رأى وحديث ، ويضعون أحاديث ملء الفراغ الذي لم يرد فيه حديث^(٥) ؛ ثم أهل ديانات قديمة يلدسون من دياناتهم وعقائدهم خفية في التفسير والحديث وقصاص

(١) حلية الأولياء ج ٣ ص ٣٣٨ و ٣٣٩ والكتاب المقدس ص ٩٩٢ و ٩٩٣ مطبعة جمعية التوراة البريطانية والأجنبية - (المطبعة الجامعية بكامبردج) .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٣ و ٣٨٤ - المطبعة البهية المصرية .

(٣) ضحى الإسلام ج ٢ ص ١٣٧ .

(٤) ليس من فرقة دينية إلا وتستنصر لرأيها بالحديث كما يرى الناظر إلى كتاب حجج القرآن لجميع أهل الملل والأديان لأبي الفضل الرازي . وانظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢ و ٣ .

(٥) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٩٦ . طبعة كردستان العلمية سنة ١٣٢٦ هـ .

يدخلون متخيلاتهم ومسموعاتهم من أهل الكتاب في التفسير ووعاظ يبغون التأثير فيتسمعون بكل شيء في سبيل غايتهم . وكان على الطبرى بعدئذ أن ينقو جو التفسير وقد تشبع بآثار هذا كله .

تلك هي المناهج التي اتخذت سبيلها في تاريخ التفسير القرآني وهي كلها نستطيع أن نمثل لها بمؤلفات تفسيرية حيت وأبقى عليها الزمن الذي أضاع مؤلفات مفسري المتكلمين على كثرتها وضخامتها — كما سنعرض لذلك بعد — لقد اندثرت آثار المتكلمين في التفسير وبقي أثر تفسيري واحد كامل لهم هو تفسير الكشاف للزنجشري الذي يمثل أصدق تمثيل متزع المتكلمين في تفسيرهم للقرآن ويعالج إعجاز القرآن على نحو لم نألفه في تفسير من التفاسير التي بين أيدينا اليوم .

ونحاول فيما يستقبل من أبواب وفصول أن نتعرف إلى هذا المؤلف التفسيري ونرسم خطا صاحبه فيه .